موقع روح الإسلام
http://www.islamspirit.com

سلسلة: أخلاق المسلم

للعلاَّمة المُحدِّث:

محمَّد ناصر الدِّين الألبانيّ
-رحمه الله-

❁❁ ❁❁ ❁❁

سلسلة أخلاق المسلم

من شرح كتاب: الأدب المفرد

للشيخ العلَّامة / مُحمَّد ناصر الدِّين الألبَاني

(رحمه الله)

الشريط الثامن

الشيخ الألباني –رحمه الله– : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (70) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (71) ﴾، أمَّا بعد، فإن خير الكلام كلام الله، وخير الهدي هدي مُحمَّد ﷺ وشر الأمور مُحدثاتها وكلَ مُحدَثة بدعة وكل بدعةٍ ضلالة وكل ضلالةٍ في النَّار.

لم يكن بودي في هذه الليلة أن أتكلَّم بشيء؛ لأننا رغبنا أن نُسمعكم صوتاً جديداً من أخٍ لنا قديم من إخواننا السلفيين الذين استجابوا لله وللرسول حين دعاه وإخوانه إلى اتباع الكتاب والسنَّة، وعلى منهج السلف الصالح، أردنا أن نعطيه هذا الوقت ليتكلَّم بما يبدو له ممَّا ينفع الناس جميعا والسلفيين بخاصَّة. وكنت رأيت إن بقي عندنا شيء من الوقت كالمعتاد أن نُجيب على الأسئلة التي يوجهها إخواننا عادة. ولكن بدا لي وأنا داخل إلى هذا المكان أن أتكلَّم بكلمة –على الرغم من ذلك – ذلك لأنه جاءت أيضا مناسبة، وهي أن أخاً لنا في الغيب لا نعرفه من قبل زارنا قبل أيام ثم زارنا في هذه الليلة، ولاحظ في مجلسنا شيئا من الحرية من إخواننا معي باعتباري شيخاً لهم عند هذا الزائر الكريم، فحدَّثته بأننا نحن لسنا كما تعلم مع إخواننا من المشايخ مع مريديهم وتلامذتهم، وأردتُ أن ألف نظره بأننا سندخل الان المجلس وقد ترى شيئا أيضا لا يُعجبك، قال لي : ماذا؟، قلتُ فستراني دخلت ولا أحد يتحرَّك إطلاقا، فأجاب –كما هو بالطبع متعلِّم وعاش على ذلك مدَّة من الزمن –: لهم ألّا يقوموا ولهم أن يقوموا.

وباعتباره زائراً وقد لا تُتاح لي هذه الفرصة أن أتكلَّم معه في هذه المسألة في جلسةٍ خاصَّة من جهة، فخشية أن تفوتني هذه الفرصة، وأن يفوتني هذا الصيد المُثمر المذهل فهذا من جهة، ومن جهة أخرى أنني أعلم أنه يحضر جلستنا هذه كثير من الإخوان الطيبين والذين يتثقَّفوا بثقافة يظنّونها أنها من الإسلام وهي ليست من الإسلام في شيء، إنَّما هي تقاليد تسرّبت إلينا منذ قديم من تقاليد فارس والروم، ولقد جاء في الحديث الصحيح الذي أخرجه الإمام مسلم من حديث جابر بن عبد الله الأنصاري ﷺ : (أن النبي ﷺ صلَّى ذات يومٍ صلاةَ الظهر بهم جالسًا، فصلَّى أصحابه خلفه قياماً، فأشار إليهم وهو في صلاته أن اجلسوا، فجلسوا، وحينما فرغ رسول الله ﷺ من الصلاة قال لهم : "إن كدتم لتفعلنّ آنفا فعل فارس بعظمائها يقومون على رؤوس ملوكهم إنَّما جُعِل الإمام ليُؤتمَّ به، فإذا كبَّر فكبِّروا، وإذا ركع فاركعوا، وإذا سجد فاسجدوا، وإذا صلَّى قائماً فصلّوا قياماً، وإذا صلَّى جالساً فصلّوا جلوساً أجمعين).

الشاهد من هذا الحديث هو أنَّ من عادة الأمم أن يأخذ بعضها عن بعض وأن يُقلّد بعضُها بعضاً، وإنّما يأخذُ الضعيفُ من القوي، وإنما يقلّدُ الضعيفُ القوي، كما هو واقعنا اليوم تماما فقد أصبحنا على الرغم من ديننا وإسلامنا –بسبب بعدنا عن إسلامنا –أصبحنا أُمَّة ضعيفة تقلّدُ الأقوياء في المادّة –ليتهم كانوا أقوياء في الدّين وفي العقيدة وفي الخُلُق –، أصبحنا نقلّدهم لأننا ننظر إليهم بعين الإكبار والإجلال والتعظيم، هذه عادة الأمم ضعيفها مع قويها،وحقيرها مع عظيمها، لذلك جاء الإسلام في جملة ما جاء به من المقاصد والقواعد أن نهى المسلمين أن

يتشبّهوا بالكافرين؛ ذلك لأن التشبّه مدعاةٌ لإضاعة شخصية الأمَّة ولتمييعها في شخصية أُمَّة أُخرى، فطالما جاءت الأحاديث عن النبي ﷺ تترا بعبارات متنوعة شتَّى كلها تؤدّي إلى حقيقة واحدة ألا وهي : (حافظوا على شخصيتكم المسلمة ولا تقلّدوا الكفَّار في شيء من تقاليدهم ومن عاداتهم).

لست أريد الخوض في شيء من التفصيل من هذا الأصل من تلك الأصول التي ألمحت إليها آنفا، فقد كنت تحدّثت بشيء من التفصيل عن ذلك في كتابي (حجاب المرأة المسلمة في الكتاب والسنّة)، وإنَّما عزمت على الكلام على جزئية من الجزئيات التي فشت اليوم في مجالس المسلمين، وبناءا على كلمة الأخ المُشار إليه سابقاً الذي دخل المجلس فلِلنَّاس الجالسين أن يظلّوا جالسين وأن يقوموا.

فنحن نقول : إذا دخل الشيخُ مجلساً فليس لأحدٍ أن يقوم له؛لأن هذا الشيخ مهما سما وعلا فلن يكون من رسول الله ﷺ شيئاً مذكوراً، وقد علمنا من السُّنّةِ الصحيحة أن النبي ﷺ هو سيد البشر، وأن أصحابَه [رضوان الله عليهم] هم أفضل البشر بعد الأنبياء والرُّسل، فإذن هم أعرف الناس بما يستحقه أعظم النَّاس وسيد النَّاس وهو رسول الله ﷺ من التبجيل والإكرام والتعظيم، كيف لا؟؟ وقد سمعوه ﷺ يقول لهم مِراراً وتكراراً: (ليس منَّا من لم يرحم صغيرنا ويوقِّر كبيرنا ويعرف لِعالمنا حقَّه) هذا حديث رواه إمام الأئمّة محمّد بن اسماعيل البخاري في كتابه الأدب المفرد من طرُق عديدة وعن جماعةٍ من الصحابة، وممّا روى أيضا : (أن من إجلال الله –

من تعظيم الله إجلال ذي الشيبة المسلم) فإذن هؤلاء الصحابة الذين تأدّبوا بأدب رسول الله ﷺ، وتخرَّجوا من مدرسته وصاحَبوه ما شاء الله –عز وجل– من سنين كلٌ بحسبه، ما كان لهم إلَّا أن يُعظّموا الرسول ﷺ التعظيم الذي يستحقّه، فهل كان من ذلك أنَّه إذا دخل عليهم رسول الله ﷺ في مجلسٍ كهذا –وبدون تشبيه كما يقولون– هل كان أحدٌ منهم يقوم له؟

إذا رجعنا إلى السنّة الصحيحة وجدنا الجواب صريحاً بالنفي، وذلك أيضا مما رواه إمام الأئمة في الكتاب السابق الذكر –الأدب المفرد– عن أنس بن مالك ﷺ قال : (ما كان شخصٌ أحبَّ إليهم من رسول الله ﷺ، وكانوا لا يقومون له لِما يعلمون من كراهيته لذلك).

فإذن أصحاب الرسول ﷺ كانوا لا يقومون لسيدهم بل سيّد الناس جميعا، تُرى أهذا استهتار منهم ولا مبالاة بتعظيم الرسول ﷺ وإكرامه الإكرام الذي يليق و يجوز شرعا؟ أم هو تجاوبٌ منهم مع نبيهم ﷺ الذي أفهمهم بأن هذا القيام هو من عادة الأعاجم، وأصله –كما أشرنا في مطلع هذه الكلمة– لأحاديث جمّة عن التشبّه بالأعاجم يعني الكفَّار، لا شك أن عدم قيامهم للرسول ﷺ إنَّما كان من احترامهم له وتعظيمهم له؛ لأن الله –عز ووجل يقول : ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ...﴾ [آل عمران:31]، فاتِّباع الرسول ﷺ حق الاتّباع وذلك يستلزم أن يُعرِض الإنسان عن أهوائه وعن عواطفه تجاه أمر نبيه ﷺ وسنَّته؛ لذلك كان أصحاب الرسول ﷺ لا يقومون له، لماذا؟ الجواب في نفس الحديث (لما يعلمون من كراهيته لذلك).

فرسول الله ﷺ كان يكره من أصحابه أن يقوموا له، تُرى لماذا؟ بعض النّاس ممَّن اعتادوا مُخالفة هذه السنَّة ممّن يقومون لغيرهم وممَّن يُقام لهم، يتأولون هذا الحديث بغير تأويله، ومع ذلك فتأويلهم هذا يعود عليهم ولا[دليل] إليهم، يقولون : (لما يعلمون من كراهيته لذلك) : أي الرسول ﷺ كان متواضعا، – كان من أشد النّاس بلا شك تواضعا– فمن تواضعه أنه لا يحب أن تقوم الصحابة له. نحن لا نُسلّم بهذه العلّة! نحن نُسلّم أن الرسول ﷺ بلا شك أشد الناس تواضعا، لكن لا نسلّم أبداً بأن هذه هي العلّة! – وسنذكر ما هي العلّة – لكن نقول لهؤلاء المُتأولين بهذا التأويل: فما بالكم أنتم لا تتواضعون تواضع الرسول ﷺ؟ ألستم أنتم أولى بأن تتواضعوا من الرسول ﷺ؟، الرسول ﷺ إذا قال للنّاس صلّوا عليَّ – والكلام يجر الكلام كما يقولون– صلّوا عليّ معناها : أي ادعوا لي بأن الله يزيدني شرفا ومجدا وعلوا ومنزلةً، هذا قد يُخالف التواضع، لكننا نقول حينما يأمر الناس ليُصلّوا عليه إنّما يأمرهم بأمر الله له أن يأمرهم بأن يُصلّوا عليه؛ لأن ذلك أقل ما يستحقه الرسول ﷺ بسبب أنه كان هداية للناس كما قال الله تعالى في القرآن : ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى:52].

فإذا كان الرسول ﷺ لم يتواضع هذا التواضع فلا ضيرعليه؛ لكن أنتم عليكم الضير كله؛ لأنه يُخشى عليكم الفتنة، يُخشى عليكم أنّكم إذا اعتدتم من الناس أن يقوموا لكم –أن يدخل الشيطان والشيطان يجري من بن آدم مجرى الدم – أن يدخل فيكم الشيطان دخولا خاصًّا فيُغيّر من أخلاقكم ومن عاداتكم وأطباعكم فيُصبح أحدكم إذا دخل المجلس ولا يقوم واحد من

المجلس وكأنَّما كفر بالله ورسوله، ماذا فعل هذا الإنسان؟؟ أقل ما يُقال –كما سمعتم حكاية منَّا آنفا– أن له أن يقوم وله ألَّا يقوم، فهذا ما قام، لماذا قامت عليه القيامة؟؟ لأنهم فهموا أن هذا القيام دليل احترام، وتركه دليل إهانة وعدم الإكرام. تُرى هل كان الصحابة هكذا مع الرسول ﷺ؟ كانوا لا يُكرمونه؟ هل كانوا يُهينونه بترك القيام؟؟ حاشَ وكلَّا، لكن لمَّا انحرف الفَهم الصحيح لهذا الحديث كراهية الرسول ﷺ (لِما يعلَمون من كراهيته لذلك) انحرف بهم الأمر فقالوا: " الإكرام بالقيام لا بأس به"، لماذا كان أصحاب الرسول لا يقومون للرسول؟ " تواضعا منه " هكذا يقولون.

نقولُ: تشبّهوا برسول الله واقتدوا به وتواضعوا تواضعه، ولا تطلبوا من من أصحابكم أن يقوموا لكم، بل أشيعوا بينهم أنّكم تكرهون هذا القيام، فماذا تكون النتيجة والعاقبة، كما كان بين الرسول ﷺ بينه وبين الصحابة، يدخل الرسول ﷺ المجلس لا أحد يقوم، إهانة له؟؟؟!! حاشَ، لماذا؟ إكراماً له ﷺ؛ لأنه كره منهم ذلك، فلو أننا نحن الذين ننتمي إلى العلم، وننتمي إلى التمشيخ سلكنا سبيل الرسول ﷺ في كل شيء، ومن ذلك نكره ما كرهه ﷺ،خاصّة من مثل هذه الآداب الإجتماعية التي تفسد القلوب وتفسد الأخلاق، كنا في مجتمع ليس كهذا المجتمع، كنا في مجتمع ليس فيه تقاليد الأعاجم [إطلاقا]، أمَّا الجواب الصحيح لقول أنس بن مالك رضي الله عنه – السابق الذكر : (لما يعلمون من كراهيته لذلك) كراهية شرعية، الرسول يكره هذا القيام، لماذا؟ لأنه من عادة الأعاجم، وقد سمعتم آنفا حديث جابر وهم وقفوا خلف الرسول ﷺ قياما،

لمن؟ ولماذا؟ تحقيقا لنص القرآن الكريم : ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ [البقرة:238]، إذن ما قاموا لمحمَّد ﷺ القاعد في صلاته مضطرًا، وإنَّما قاموا لله رب العالمين أي نيتهم تعظميم الله –جل وعلا – لا غير،ما فعل معهم الرسول ﷺ؟ ما صبر حتى انتهى من صلاته، وإنَّما عجَّل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فأشار إليهم في الصلاة بيده : (أن اجلسوا) بعد الصلاة شرح لهم بمثاله وبيانه، فقال : (إن كدتم لتفعلون آنفا فِعل فارس لعظمائها، يقومون على رؤوس ملوكهم).

هناك فرق كبير – كما يبدو لكل إنسان يسمعناهذا الحديث بين ملوك فارس (كسرى) يجلس على عرشه المُفخَّم، وحوله حاشيته ووزراءه قياما، وهو يجلس تعاظُمًا، وهم يقومون تعظيما له، بين هذه الظاهرة من جلوس الرسول ﷺ في الصَّلاة وليس خارج الصلاة،ومضطرّا وليس اختيارا، وقيام الصحابة أيضا في الصلاة وليس في المجلس، ايضًا مضطرِّين طاعة لرب العالمين، يقومون لله قانتين، أين هذه الظاهرة من تلك، شتَّان ما بينهما، ومع ذلك قال لهم ﷺ : (يقومون على رؤوس ملوكهم) يا رسول الله هم يقومون تعظيما لمَلِكهم شبه العبادة، لكنهم يفهمون أن هناك أمور مُحرّمة لذاتها، وأمور أخرى محرَّمة بغيرها لأنها تؤدّي إلى فعل محرَّم، من ذلك تبنّي المسلمين عادات الأجانب، وعادات الأعاجم، فمن هذه العادات هذا القيام الذي ابتُليَ به جماهير المسلمين اليوم والسبب –تعرفونه جميعا– وهو: الابتعاد عن السنَّة وعن الاهتداء بهدي السلف الصالح، وهذا بحث طويل، ولا أريد الاستمرار فيه لنترك المجال لضيفنا

الكريم ليُلقي ما شاء الله –عز وجل – أن يُلقي عليكم من الفوائد وإنّما أختم هذه الكلمة بقصة فيها علم وفيها طرافة وفيها فائدة.

يذكر أهلُ التاريخ في ترجمة أبي عبد الله بن بطة من كبار علماء الحديث والحنابلة أنّه كان يكره أشد الكراهة هذا القيام الذي اعتاده الناس اليوم وقبل اليوم بمئات السنين، فخرج ذات يوم مع صديق له شاعر إلى السوق، فمرَّا برجل عالم جالس في محله –وهذا من أدب العلماء قديما كانوا يعتمدون في تحصيلهم لرزقهم على كدّ يمينهم وعرق جبينهم– فمروا بهذا العالم مُسَلِّمين، فقام هذا العالم لابن بطة، فقال ابنُ بطة لصاحبه الشاعر: – قبل ذلك قام العالم وهو يعلم أن ابن بطة يكره هذا القيام على نحو ما تسمعون الآن – فاعتذر إليه ببيتين من الشعر، قال له :

" لا تلُمني على القيام فحقّي *** حين تبدو ألّا أملَّ القياما

أنت مِن أكرم البريةِ عندي *** ومن الحقِّ أن أجلَّ الكِراما "

كلام العالم بعضه صحيح، من حقه أن يجل الكرام – وقد ذكرنا حديثا بل حديثين آنفا– من حق المسلم إجلال الرجل الكبير، ولكن هل يكون الإجلال بغير السُّنَّة؟، بمخالفة السُّنَّة؟ هل مثلا يكون الإجلال بالسُّجود؟؟ لا، كل المشايخ يقولون: لا للسجود لغير الله، لا يجوز، –عفوا لقد قلتُ كل المشايخ يقولون بأنه لا يجوز السجود لغير الله، كنت أتمنى أن أكون موفَّقا للصواب حينما قلت: " كل المشايخ" لكن آسف ومضطَّر أن أقول: ليس كلهم يقولون كذلك، فهناك في بعض الطرق من تقاليدهم أنَّ المُريد حينما يريد أن يأخذ الإذن من الشيخ بأن يطوف في

المجلس فيسجد للشيخ!!، ويقولون :هذا سجود تعظيم وليس سجود عبادة!!، نحن قرأنا هذا في كثير من الرسائل.

فهل يُعظَّم المسلم بالسجود؟ الجواب والحمد لله : لا، على الأقل عند الجمهور، أما أولئك فهم شذّاذ، وعندنا حديث معاذ بن جبل لما جاء إلى هذه البلاد قبل فتحها بالإسلام ورجع إلى المدينة فأوّل ما وقع بصره على النبي صلَّى الله عليه وآله وسلم هوى ليسجد له، قال له : (مه يا معاذ!) قال: (يا رسول الله إنّي أتيت الشام فرأيت النّصارى يسجدون لقسيسيهم وعظمائهم فرأيتك أنت أحق بالسجود منهم)، هذا كلام صحيح، لو كان السجود لغير الله جائزا فهو أحق من أن يسجد له من أن يسجد القسيسون والرهبان لعلمائهم، قال عليه الصلاة والسلام : (لو كنتُ آمرا أحداً أن يسجد لأحد لأمرتُ الزوجة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها)، وفي أحاديث أخرى (لكن لا يصلح السجود إلا لله تبارك وتعالى).

إذن لا يجوز تعظيم المسلم بالسجود؛ لأن هذه خصوصية لله –عز وجل–. طيب، هل من إجلال المُسلم أن يُركع له؟؟

الجواب : أيضا لا، إلا في بعض الطرق هم الذين استجازوا السجود من باب أولى يستجيزون الركوع، جاء في حديث أنس بن مالك أيضا في سُنن الترمذي وغيره، قال سائل: (يا رسول الله أحدنا يلقى أخاه أفيلتزمه؟، قال: لا، قال: أفينحني له؟، قال: لا، قال: أفيصافحه؟ قال: نعم) إذن الانحناء أيضا كتحية أجنبية لا تصح من مسلم لمسلم،فذاك العالم لمَّا قال :

ومن الحق أن أجل الكراما

هذا كلام صحيح، لكن عمله ليس صحيحاً؛ لأنه ليس وسيلة مشروعة لتعظيم الرجل العالم؛ لذلك قال ابنُ بطة لصاحبه الشاعر– ويبدو أن هذا الصاحب كان يعرف رأي ابن بطة بدقَّة وكان فيما يبدو أيضا شاعرا بالفطرة وبالسليقة، فعلى الفور وعلى القافية أجابه بقوله– :

أنت إن كنتَ – لا عدمتك– ترى لي حقا وتظهر الإعظاما.

فلك الفضل في التقدم والعلـم ولسنا نريد منك احتشاما

الشاهد هنا

فاعفني الآن من قيامك أولا فسأجزيك بالقيام قياما

وأنا كارهٌ لذلك جـــدا إن فيه تملقا وأثامــا

لا تكلِّف أخاك أن يتلقـاكَ بما يستحلُ به الحراما

كلنا واثقٌ بود أخيـــه ففيمَ انزعاجنا وعلاما "

لذلك واجب الدعاة المسلمين المخلصين حقا أن يرجعوا بهذا المجتمع الإسلامي الضخم إلى العهد الأول في كل شيء، ليس فقط في العقيدة، وليس فقط في العبادة، وليس وليس وإنما

للإسلام كله ومن ذلك العادات والتقاليد، نحافظ عليها كما ورِثناها عن سلفنا الصالح. وهذا واضح جدا، لو أن المجتمع الإسلامي اليوم كان مربًّا على ما ربَّى عليه رسول الله ﷺ أصحابه لم يكن لِهذا القيام، لا محل له من الإعراب –كما يقولون –لماذا؟ قال هذا الشاعر المتفقه من العالم الفقيه :

وإذا صحَّت الضمائرُ منّا اكتفينا من أن نتعب الأجساما

كلنا واثقٌ بودّ أخيـــه ففيم انزعاجنـــا وعلامـا

لذلك نسعى بما عندنا من علم، ونتعاون مع إخواننا المسلمين جميعاً على أن نعود إلى هدي الرسول عليه الصلاة والسلام فهو –كما سمعتم آنفا وتسمعون بين يدي كل كلمة نقولُها – فإنَّ خير الهدى هدى مُحَمَّد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

درسنا في هذه الليلة في تمام الأحاديث الواردة في كتاب الترغيب والترهيب للحافظ المُنذري في فصل: الترغيب في الجليس الصالح، والترهيب في الجليس السيء، وما جاء في من جلس وسط الحلقة وأدب المجلس وغير ذلك.

فكان انتهي درسُنا الماضي إلى الحديث الثامن، وهو حديث جابر بن سَمُرة رضي الله عنهما، قال : (كنَّا إذا أتينا النبي ﷺ جلس أحدنا حيث ينتهي أي مجلسه) رواه أبو داوود والترمذي وحسّنه وابن حبّان في صحيحه.

في هذا الحديث أدب من آداب المجالس التي سبق ذكر بعض الأحاديث الواردة فيها في الدرس الماضي، ففي هذا الحديث ما يُساعد على اجتناب نهيٍ يتعلقُ بآداب المجالس، ذلك النهي هو أنه لا يجوز للمسلم إذا دخل المجلس أن يقيم أحدا من مجلسه ليجلس هو فيه، وبالتالي لا يجوز لمن كان جالس في مجلس أن يقومَ بوازع من نفسه للدّاخل إلى المجلس، كل هذا وهذا منهيٌ عنه في الأحاديث التي سبق ذكرها في الدرس الماضي.

والأدبُ بديلَ هذا الأدبِ الذي يقوم به بعض الناس –وهو القيام من المجلس للداخل–، هذا ليس أدبًا إسلاميًا، إنّما الأدب الإسلامي هو كما قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ..﴾ [الحجرات:11] هذا التفسّح هو أدب المجلس، أما القيام من المجلس فهذا منهيٌ عنه –كما سبق بيانه في الدرس الماضي –، الآن في هذا الحديث، حديث جابر بن سمُرة أدبٌ مما كان عليه أصحاب النبي ﷺ في المجالس التي كانت تُعقد حوله ﷺ، فكان أحدهم إذا دخل المجلس دخل حيث انتهى به المجلس.

هكذا كان أصحابُ النبي ﷺ المتأدبين بآدابه ﷺ والمهتدين بهديه، إذا دخل أحدهم المجلس جلس حيث انتهى به المجلس، هذا إذا كان في المجلس سَعةٌ وفراغٌ، أما إذا لم يكن ثمة تلك السَعة

والفراغ، فعلى الجالسين فيه والمتمكّنين بالجلوس منه أن يُحققوا ذلك الأمر الإلاهي، فتفسّحوا في المجالس يفسح الله لكم.

مثل هذه الآداب مُراعاتها مما –أولا– يُحققُ ذلك الأدب الذي اختاره الله –عز وجل– لعباده المؤمنين، ويتميزون بذلك عن الآداب الارستقراطية أو الآداب الأجنبية التي تُمثِّلُ طبيعتهم وأخلاقهم والتي ليس من طبيعة المسلم أن يتخلَّق بأخلاقهم، فواجبُ المسلم أن يكون شخصيته المُسلمة بأن يتطلَّب دائما وأبدا أن يقتدي بآدابه ﷺ وهديه الذي أُنزل عليه من السماء، فمن ذلك هذا التوسُع وذاك الانتهاء في المجلس حيث يجد فراغاً يجلس فيه، المحافظة على هذا الأدب الإسلامي يُحقق المنفعة المقصودة من المجالس التي يُلقى فيها العلم ويُدرَسُ فيها الفقه من كتاب الله وحديث رسول الله ﷺ.

وهاهنا أدبٌ آخر من هذه الآداب وهو الذي تضمّنه الحديث التاسع وهو قوله : وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه أن رسول الله ﷺ قال: (لا يحلُّ لرجلٍ أن يُفرّق بين اثنين إلّا بإذنهما).

هذا النَّهي إنّما يتحقق –لقد قلنا آنفا، فلم يبقى في القوس منزع كما يُقال– هذا النهي في هذا الحديث (لا يحلُّ لرجلٍ أن يُفرّق بين اثنين) محلُّه حيث كان هناك اثنان جالسَين وليس كما هو الوضع هاهنا الآن، فلابد من التفريق بين الجالسَين ومزاحمتهما في مجلسهما؛ لكي يحظى هو بمجلسٍ ولو كان كمَفحَصِ قطاة؛ لكي يتمكّن من الإصغاء لما يُلقى من العلم، ليس هذا هو

المقصود بهذا الحديث، وإنّما المقصود به إذا كان اثنان يجلسان في مجلس خاص، وهما يتواددان ويتسارّان في الحديث فليس من الأدب الإسلامي مطلقاً أن تأتيَ أنت وقد دخلت المجلس مُحدثاً جديداً أن تنزل بينهما– كما يقول العامّي اليوم مثل الإسفين – هذا تفريق بينهما لا يجوز في الإسلام، فعليك أن تجلس عن يمين أحدهما أو يسار الآخر، فلا يحلُّ لمُسلم أن يجلس بين اثنين، جاء الاستثناء (إلّا بإذنهما)، إذا كان ليس هناك حديث خاص بينهما فأذِنا له بأن يجلس بينهما، فلا بأس من ذلك، وأمّا أن تفرض أنت نفسك وشخصك فتجلس بينهما بدون إذن منهما فهذا لا يجوز، وهذا كما قلنا محله في المجلس الخاص، حيث جلس اثنان –كما قلنا– يتحابان ويتواددان، فلا يجوز –والحالة هذه– أن تجلس أنت بينهما إلا بإذنهما، أمّا المجالس العامّة كمثل هذا المجلس فلابد من أن يجلس الداخل بين اثنين، لكن هما ليس اثنان فقط، فهناك عشرات بل ربما مئات.

لذلك يجب أحولاً أن نحافظ على هذا الأدب الإسلامي، وأن نعرف –ثانياً محلّه، ألّا نجلس بين اثنين محله :إذا كان المجلس مجلساً خاصًّا، أمّا إذا كان مجلسا عامّا فلا بأس من الجلوس؛ لأن هذا الجلوس ليس هو المقصود بالنهي في قول الرسول ﷺ : (لا يحلُّ لرجلٍ أن يُفرّق بين اثنين إلّا بإذنهما).

وأدبٌ ثالث من آداب المجالس هو قوله : (وعن أبي هريرةَ ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : إذا قام أحدكم من مجلسهِ ثم رجع إليه فهو أحقُّ به) هذا الحديث وأمثاله يؤيد حديثاً شائعا بين الناس،

ولا أصل له باللفظ الشائع، وهو قولهم : "من سبق إلى مباحٍ فهو له "، هذا حديث لا أصل له في ما ورد على النبي ﷺ، ولكن هناك أحاديث عديدة تؤدّي هذا المعنى، من ذلك الحديث الذي هو بين أيدينا الآن، حيث أن الرسول ﷺ يُقرر فيه أن من كان في مجلسٍ ثم تركه وانطلق لحاجةٍ ليعود إلى ذلك المجلس فهو أحقُّ به، ولا يجوز لمن جاء من بعده أن يجلسَ فيه وأن يحتلّه بدلاً عنه، هذا مما يُشبه الاغتصاب، وهذا يُحقق معنى ذاك الحديث الذي ألمحنا إليه : "من سبق إلى مباحٍ، فهو له ".

إذن الرجلُ أحق بمجلسه، ولكن أي مجلس هذا الذي يكون هو أحق به ممن يأتي من بعده؟؟ ذلك المجلس الذي يُستعمل لوقتٍ مُحدد، كرجل مثلا يأتي المسجد ليُصلّي ثم يَعرِضُ له ما يضطرّه إلى أن يخرج مثلا ليُجدد مثلا وضوء، فإذا خرج وعاد فهو بذاك المجلس أولى ممَّن جاء بعده؛ ولذلك فلا مانع من وضع ثوب أو أي شيء آخر يُشعر الداخل بأن هذا المكان مشغول وأن صاحبه ذهب لحاجة له، وقريبا سيعود، مثل هذا يجب في الشرع المحافظة على حقِّ من سبق بالجلوس في ذلك المكان.

لكن هذا ليس يعني أنه يجوز لمن دخل المسجد أن يستوطن مكانا في المسجد لا يحيدُ عنه، ولا يرضى به بديلاً، هذا أمرٌ قد نهي الشارع الحكيم عنه. فقد جاء في حديث عبد الرحمن بن شبلٍ رضي الله عنه (أن النبي ﷺ نهي عن بُروكٍ كبروكِ الجَملِ، وعن استيطانٍ كاستيطانِ الإبلِ، وعن التفاتٍ كالتفات الثعلب) هذه مناهي نهى عنها الرسول ﷺ من ذلك استيطان المكان في المسجد كما

يستوطن البعيرُ مكانه في معطنه، فهذا النهي لا يُجيز للمسلم أن يُعرَف في المجلس أن هذا المكان هو لفلان؛ لأن هذا استيطان للمكان في المجلس نهى عنه الرسول ﷺ في الحديث السابق [ذكره] آنفا، بمعنى لا يجوز للإنسان أن يظل يُصلّي دائماً دائماً وراء الإمام، يتخذ ذلك مكاناً يستوطنه وكأنّه اشتراه بثمنه. كذلك مثلاً عن يمين الإمام أو عن يساره واضرب ما شئتَ من الأمثلة، فلا يجوز استيطان المكان في المسجد.

أمَّا محل الحديث الذي نحن بصدد التعليق عليه الآن أن (الرجل أحق بمجلسه) فليس هو ذاك المكان الذي استوطنه دائماً وأبداً، وإنَّما هو المكان الذي جاء إليه ليُصلّي فيه ثم عرَضَ له ما اضطرّه إلى أن يدعه مؤقّتا، فهذا المكان هو أولى به. أمَّا المكان الذي يستوطنه دائماً وأبداً فليس هو أولى به إطلاقاً، ولكل مسلم سبق إليه أن يجلس وأن يُصلّي فيه؛ لأنه أي المسجد هو مُشاع بين جميع المصلّين فيه ليس لأحد حقٌ أن يستوطن مكاناً خاصاً فيه.

الـــــرابط

https://ar.islamway.net/lesson/6242/%D8%A7%D9%84%D8%B4%D8%B1%D9%8A%D8%B7-%D8%A7%D9%84%D8%AB%D8%A7%D9%85%D9%86